أبو المظفر الأبيوردى

شاعر العرب

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ١ —

ذكرت من قبل كاتباً من كتّاب القرنين العربية والفارسية اسمه رشيد الدين الوطواط ، وبينت أنه عربى قرشى من ذرية عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وجعلته مثلاً لاختلاط الأمم الإسلامية بعضها ببعض، كما جعلته مثلاً لامتزاج الأدبين العربى والفارسى فى نفوس كثير من الفرس والعرب الذين استوطنوا بلاد فارس

وهذا موضوع واسع ؛ فما زالت بلاد الفرس تعدّ من مواطن الأدب العربى منذ جمعت أخوة الإسلام العرب والفرس وإن اختلفت الأحوال على مر الزمان

ومن الشعراء الذين نبغوا بتلك الديار وهم ينتمون إلى بيوت الخلافة ، الشاعران : المأمونى والواثقى، وهما من ذرية المأمون بن الرشيد والواثق بالله بن المعتصم . ومنهم أبو المظفر محمد بن أبى العباس الأبيوردى

فأما نسبته فإلى أبيورد ، وهى بلدة بخراسان فى شمالها الشرقى ، وتعد اليوم فى التركستان الروسية . وهو من قرية من قرى أبيورد اسمها كوقن على ستة فراسخ منها ، بناها عبد الله ابن طاهر فى خلافة المأمون ؛ وقد ذكرها فى شعره فهو يقول عن الشام :

وتلك دار ورثناها مغاوية ... لكن كوقن ألقانا بها الزمن

وأما نسبه فينتهى إلى أبى سفيان بن حرب ، بينهما ستة عشر أباً . وكان يتلقب المعاوىّ انتسباباً إلى معاوية الأصغر وهو الجد التاسع من أجداده . وقد تلقب فى شعره بالأموىّ والمعاوىّ ، وأكثر من الافتخار بهذه النسبة فى شعره كقوله :

خذى قصبات السبق عنى فإنما ... من الحىّ غيرَ ابن المعاوى حائز

وروى ابن خلكان أن الأبيوردى كتب رقعة إلى الخليفة المستظهر بالله وعلى رأسها « الخادم للعلوى » فكره الخليفة مكاتبته بذلك فكشط الميم من المعاوى فصار « الخادم العاوى »

— ٢ —

والأبيوردى من شعراء القرن الخامس الهجرى توفى سنة ٥٠٧ ولكن ابن خلكان يقول : وكانت وفاة الأبيوردى المذكور بين الظهر والعصر يوم الخميس لعشرين من ربيع الأول سنة سبع وخمسين وخمسمائة بأصبهان مسموماً وصلى عليه فى الجامع العتيق بها رحمه الله تعالى

وهذا التاريخ الذى ذكره ابن خلكان والذى يظهر فيه التدقيق بذكر اليوم والساعة أدى إلى تضليل كثير من الناس فى تاريخ وفاة الأبيوردى . وقد وقع الغلط فى كلمة خمسين . فوفاته كانت سنة سبع وخمسمائة لا سبع وخمسين وخمسمائة

وفى حوادث سنة ٥٠٧ ذكر ابن الأثير وأبو الفداء وفاته . وكذلك أرخها بهذه السنة ياقوت الحموى فى معجم البلدان

ثم له مدائح كثيرة فى الخليفة المقتدى بالله المتوفى سنة ٤٨٧ وما أحسبه مدح المقتدى إلا بعد أن أمضى شطراً من شبابه فى خراسان ثم رحل إلى العراق . فبعيد جداً أن يعيش بعد المقتدى أكثر من سبعين سنة . وقد مدح أيضاً الوزير نظام الملك المتوفى سنة ٤٨٦

— ٣ —

لم يقتصر فضل الأبيوردى على إجادة الشعر ؛ فقد كان واسع العلم بفنون كثيرة . روى ابن خلكان عن أبى زكريا بن تغلبه صاحب تاريخ أصبهان قوله فى الأبيوردى :

« فخر الرؤساء ، أفضل الدولة ، حسن الاعتقاد ، جميل الطريقة ، يتصرف فى فنون جمة من العلوم ، طرف بأنساب العرب ، فصيح الكلام ، حاذق فى تصنيف الكتب ، وافر العقل ، كامل الفضل ، فريد دهره ، وحيد عصره »

وروى ابن خلكان كذلك أن المقدس صاحب كتاب الأنساب ذكره فى ترجمة المعاوىّ وقال : « إنه كان أوحد زمانه فى علوم عديدة ؛ وقد أوردنا عنه فى غير موضع من هذا الكتاب أشياء »

وقد نبه إلى هذا الغلط من قبل الصديق الأديب عباس إقبال فى كلمة أرسلها إلىّ حينما دعا الأستاذ على الطنطاوى إلى الاحتفال بمرور ثمانمائة عام على وفاة الشاعر ونشرتها فى الرسالة

وكان يكتب فى نسبه العاوىّ . وأليق ما وصف به بيت أبى العلاء المعرى :

وإني وإن كنت الأخير زمانه ... لآت بما لم تستطعه الأوائل

وقال ابن خلكان : « وكان من أخبر الناس بعلم الأنساب نقل عنه الحفاظ الأثبات الثقات » ثم قال في آخر ترجمته :

« وله تصانيف كثيرة مفيدة منها تاريخ أبيورد ، وكتاب المختلف والمؤتلف ، وطبقات كل فن ، وما اختلف واختلف في أنساب العرب . وله في اللغة مصنفات كثيرة لم يسبق إلى مثلها . وكان حسن السيرة جميل الأثر له معاملة صحيحة »

هذا ما ذكره ابن خلكان وليس بين أيدينا اليوم مؤلف من هذه المؤلفات

— ٤ —

ولسنا نعرف من أخبار الشاعر وأسرته إلا نبذاً متفرقة في الديوان . نجد في الديوان مدحاً في أبيه تدل على أنه من الكتاب وأنه ذو مكانة وجاه . ومدحة في عمه تدل على أنه من الخطباء . ولعله كان خطيب الجمعة في بعض البلاد ، وهو منصب له مكانة في التاريخ الإسلامي . ونجده يمدح بعض الوزراء من أسرته ويمدح بعض بني عمه وهكذا . ونجد في الديوان قصائد في مدح بعض أخواله من سروات العجم . ويدل الديوان على رحلات الأبيوردي في أرجاء فارس وفي العراق والبلاد العربية . وكان الرجل طموحاً عيوفاً فلم يسكن إلى جانب من الأرض ، وهو يقول في قصيدة التي هجا فيها فريبرز ملك شروان :

نقلت أين الحصون ومن ... يقتر قوماً طوتهم الحقب ؟
وقد أخلق الفضل بالعراق وفي ... فارس لما اضمحلت الرتب
والشام أقوى وطالما عمدت ... لفارس النظم حلبةً حلبُ
فكيف يشتد صلب قاصدها ... ما دام للكفر حولها صُلب
وأي سوق تسوق قائدة ... قيانها يوم تعرض الخطب

وقد عرض عليه بعض الوزراء الكتابة فأبى وقال :

خليلي إن العمر ودعت شرخه ... وما في مشيبي من تلاف لفارط
ألم تعلما أني أنست لعطلة ... مخافة أن أبلى بخدمة ساقط
فلا تدعواني للكتابة إنها ... طباعة راج في مخيلة قانط
يبافسني فيها رعاع تهادنوا ... على دخن ما بين راض وساخط
وأنكرت الأقلام منهم أناملاً ... مهيأة أطرافها للمشارط
لئن قدمتهم عصبة خانها النهى ... فهل ساقط لم يحظ يوماً بلاقط؟
وأي فتى ما بين بُرْدي قابض ... على الشر كفيه والخير باسط

ويثبتنا الديوان بما كان بينه وبين الخلفاء العباسيين من مودة ، فله مدائح كثيرة في الخليفتين المقتدي والمستظهر يشيد فيها بمجد العباسيين ، ويبالغ في مدحهم ، ويذكر قرابته إليهم ، يقول في مدح المقتدي :

أسير وأسرى للعالي وما بها ... لطالبها إلا لديك لحوق
وقد ولدتني عصبة ضم جدهم ... وجدي بني ساقي الحجيج عروق

ونجده في قصيدة يطلب من المستظهر غارماً تقيه برد الشتاء يقول :

فهذه شتوة ألقت كلاكلها ... حتى استبد بصفو العيشة الكدر
ومنزل أبلت الأيام جدته ... فشفني للبليان الهم والسهر
والفؤاد وجيب في جوانبه ... كما يهز الجناح الطائر الحذر
تحكي مناق محب من يهيم به ... إذا تعانق في أرجائه الجدر
ولن تقيم به نفس فتألفه ... إذ ليس للعين في أقطاره سفر
والسقف يبكي بأجفان المشوق إذا ... أرسي به هزم الأطباء منهمر
وما سرى البرق والظلماء عاكفة ... إلا وفي القلب من نيرانه شرر
وإن المعاوي يهوى أن يكون له ... مغنى ببغداد لا تخشى به الغير
مثوى يدافع عن كتبي — وأكثرها ... فيه مديحك — أن يعتالها المطر

كذلك نعرف من الديوان أنه فارق العراق كارهاً ، وأن جماعة هنالك منهم وزير الخليفة قد أساءوا إليه . فلما أرسل إليه الخليفة يعاتبه على مفارقة بغداد أجاب بقصيدة فيها هذه الأبيات :

بغداد أيتها المطى فواصلي ... عنقاً تثن له القلاص الضمر
إني وحق المستجن بطيبة ... كلف بها وإلى ذراها أسور
وكأنني مما تسوّله التي ، ... والدار نازحة ، إليها أنظر

إلى أن يقول :

فصددت عنها إذ نبابي معشري ... وبنى علي من الأراذل معشر
من كل ملتحف بما يصم الفتى ... يؤذي فيظلم أو يخون ويغدر
فنفضت منه يدي مخافة كيده ... إن الكريم على الأذى لا يصبر

ثم يكتب من أصبهان إلى بعض أصدقائه بمدينة السلام يعرب عن حنينه إليها :

نحن إلى ماء الفراة وكائنٍ ... وحبي بشطي زُرُود[1] حلول

(١) تعريب زنده رود : اسم نهر بأصفهان

أشوقا وأجوازُ المهامه بيننا ... يطيح وجيف دونها وذميل
ألا ليت شعري هل أراني بنبطة ... أبيت على أرجائها وأقيل
هواء كأيام الهوى لا يشبّه ... نسيم كلحظ الغانيات عليل

إلى أن يقول :

فقل لأخلائي ببغداد هل بكم ... سُلوّ فعندي رنة وعويل
يرنحني ذكراكم فكأنما ... تميل بي الصهباء حيث أميل
لئن قصُرت أيام أنسي بقربكم ... فليلي على نأي المزار طويل

— ٥ —

ويبين في شعر الأبيوردي اعتداده بنفسه واعتزازه بنسبه، وإباؤه وكبرياؤه وعفته، مع طموحه وبعد آماله. وقد قال عنه ابن منده الذي ذكرناه آنفاً: «وكان فيه تيه وكبر وعزة نفس. وكان إذا صلى يقول: اللهم ملكني مشارق الأرض ومغاربها»

أقول وهي دعوة عجيبة لا أحسب صاحبها يقنع بملك بني أمية الذي امتد من السند إلى المحيط الأطلسي وجبال البرانس

وتخير الأبيوردي بعربيته وأمويته بلقاء قارئ الديوان تصريحاً وكناية في مواضع كثيرة. يقول:

أنا ابن الأكرمين أباً وأماً ... وهم خير الورى عماً وخالاً

إلى أن يقول:

وهم فتحوا البلاد بياترات ... كأن على أعنّتها نعالا
ولولاهم لما درت بغيء ... ولا أرمى بها العرب الفصالا
وقد علم القبائل أن قومي ... أعزهم وأكرمهم فعالا
وأصرحهم إذا انتسبوا أصولاً ... وأعظمهم إذا وهبوا سجالا
مضوا وأزال ملكهم الليالي ... وأيّةُ دولة أمنت زوالا ؟

وقال أيضاً:

وقالت سليمى إذ رأتني لثربها ... ورائقها وجه أغر مهيب :
أظن الفتى من عبد شمس فإن يكن ... أبوه أبا سفيان فهو نجيب
أرى وجهه طلقاً يضيء جبينه ... وأحسب أن الصدر منه رحيب
سليه يكلمنا فإن اختباله ... على مابه من خَلّة لجبيب
فقلت: غلام من أمية شاحب ... بأرضكما نأي المزار غريب

وقال في شعر الصبي:

قالت لصحبي سراً إذ رأت فرسي ... من الذي يتعدي مهره خيبا ؟
فقال أعلمهم بي: إن والده ... من كان يجهد أخلاف العلى حلبا
وذا غلام بعيد صيته وله ... فصاحة وفعال زين الحسبا
وظل ينشدها شعري ويطربها ... حتى رأته بذيل الليل منتقبا
فودعته وقالت يا أخا مضر ... هذا لعمري غلام يعجب العربا

(البقية في العدد القادم)

عبد الوهاب عزام

الأفصاح

للمعجم العربي الفذ، وهو خلاصة وافية للمخصص وغيره من المعجمات، يرتب الألفاظ العربية على حسب معانيها، ويصفك باللفظ للمعنى المراد، يعين العلماء على وضع المصطلحات العربية في العلوم المختلفة، ولا يستغني عنه مترجم ولا أديب، ٨٠٠ صفحة تقريباً، طبع دار الكتب، أشرفت طبعته على النفاد، ثمنه ٢٥ قرشاً يطلب من مجلة الرسالة ومن المكتبات الكبيرة ومن مؤلفيه:

حسين يوسف موسى — عبد الفتاح الصعيدي
المدرس بالمدرسة السعيدية — رئيس التحرير
الثانوية بالجيزة — بمجمع فؤاد الأول للغة العربية

البواكير

المجموعة الأولى من قصائد الشاعر علي محمود طه

بعد طواف سبعة أعوام في عالم الأدب

يعود إلى المكتبة العربية صوته جديداً

طبعة فاخرة من ثلاثة ألوان محلاة بالصور

يطلب من مجلة «الرسالة» بعابدين ومن المكتبات: التجارية والنهضة، والمعارف، والأنجلو، والهلال وغيرها بالقاهرة

ثمن النسخة ١٥ قرشاً عدا أجرة البريد